

الأستاذة: ضميري عزيزة
مقياس: تاريخ الجزائر السياسي 1.
المستوى: السنة الأولى.
التخصص: جذع مشترك.

المحاضرة الثالثة: الاحتلال الوندالي 429م-534م.

غزو الوندال لشمال أفريقيا، كان جزءًا من الهجرات الجرمانية الكبرى التي غيرت وجه أوروبا في أواخر العصور القديمة، فهي حركة عسكرية لا رجعة فيها، لأن الوندال كانوا ينوون إقامة مستوطنة دائمة في أفريقيا، وليس مجرد غزوها مؤقتًا.

يكشف **كلود بورجوا Claude Bourgeois** عن السمعة السيئة التي تمتعوا بها، لدرجة أن الاسم نفسه ارتبط بالتخريب والنهب. وقد ترسّخت لدى معظم المهتمين بقضية الوندال صورة نمطية عنهم بأنهم شعوب متوحشة تستمتع وتتلذذ بإلحاق الأذى بالآخرين، أي أنهم شعوب سادية، ويتفق معظم الباحثين على أن موضوع الوندال قد تم التعامل معه بشيء من الحساسية والمبالغة غير الضرورية، وأنهم في الواقع لا يختلفون عن الشعوب الأخرى التي خضعت لاختبار الحرب، لأن هذه الأخيرة لا تنطلي على روح الإنسانية والرحمة تجاه الأعداء، ومن الأمثلة على ذلك ما حدث مع الآشوريين وغيرهم من الأمم على مر العصور فقد شهدوا أفظع حالات الوحشية البشرية وانتهاك قوانين الطبيعة والعدالة. بل إن ما ثبت عن الوندال هو عدم تسامحهم مع كل أشكال المقاومة التي وقفت في طريقهم، كما مارسوا عملية الانتقام والعقاب الجماعي من المدن التي قتل فيها رفاقهم، ولم يستثنوا أحدًا من ذلك، سواء كان رجلاً مسنًا أو رضيعًا، ولا حتى وجهاء تلك المدن، حيث كانوا جميعًا في صف واحد أمام عدالة الوندال.

ووفقًا **لجيبون**، فقد اتسم الوندال بروح التمرد والتدمير. ومع ذلك، فهو يدحض معظم القصص عن الوندال التي لا يقبلها العقل والمنطق، ومن أمثلة ذلك ما قيل عن عاداتهم في اقتلاع جميع أشجار الفاكهة في الأراضي التي وصلوا إليها وينوون البقاء فيها، لأن هذا يتناقض مع نية الاستيطان والاستغلال. كما يُنكر ما قيل عن حروبهم، من أنهم يذبحون أسراهم أمام المدن المحاصرة من أجل نشر الوباء بين أعدائهم بتلويث الجو، متسائلًا عن إمكانية بقاء الوندال بمنأى عن هذا، لأنه بالمنطق سيكونون أول ضحايا فعلهم هذا.

تعود الصورة القائمة عن الوندال إلى تحامل وانحياز المؤرخين (الرومان والمسيحيين) الذين كتبوا عنهم دون إنصاف، إذ كانوا إمّا أعداءهم أو ضحاياهم، مما جعل رواياتهم تفتقر إلى الموضوعية. و هذا التشويه متوقع نتيجة تحامل من نقل التاريخ، وغياب مؤرخ واندالي يقدم رواية منصفة ومستقلة. ورغم محاولات بعض الباحثين المعاصرين مراجعة تلك

الروايات، فإن الحكم النهائي ظلّ متأثراً بالرؤية التقليدية التي تساوي بين الوندال وسائر الجيوش القديمة في قسوتها.

يعتبر البرابرة الوندال من الشعوب الجرمانية التي هاجرت من سواحل البلطيق حوالي القرن الأول الميلادي وزحفوا إلى أوروبا واستولوا على بلا الغال وإسبانيا سنة 409 م واستقروا جنوباً في مقاطعة باتيكا، وما لبثت أن أخذت اسمهم فدعيت **Vandalicia**، ومن حينها دعيت البلاد باسمهم "وندالوسيا" وأطلق عليها العرب الفاتحون اسم **الأندلس**.

اتفق الوندال مع الرومان سنة 411م على أن يمنحهم حق الاستقرار في تلك البلاد في مقابل قيامهم بالدفاع عنها ضد الأخطار الخارجية لكن بعد أربع سنوات أخذ الرومان يدفعون القوط الغربيين (قوم جرمني) لمهاجمتهم، وقد صمد الوندال أربع عشرة 14 سنة محرزين بعض الانتصارات، لكنهم عجزوا عن الاستمرار في المقاومة، فانطلق بهم ملكهم **جنسريق (جزريق) Gaiseric (419-477م)** سنة 429م عبر مضيق جبل طارق إلى شمال إفريقيا، ونزل بهم في أراضي المغرب الحالية، على أمل أن تكون الحبوب والغلال الوفيرة هناك كافية لسد حاجة شعبه.

المعروف عن الشعوب البرابرة داخل الإمبراطورية الرومانية ميلها الدائم إلى الاجتياح والتوسع نحو مناطق جديدة، لذلك بعدما عبر الوندال نهر الراين في 31 ديسمبر سنة 406م، وبعدها أقاموا ثلاث سنوات في بلاد الغال ثم عشرين سنة في إسبانيا، غادروها نحو إفريقيا سنة 429م حيث تمّ الإنزال عند مدينة طنجة وواصلوا تقدّمهم برّاً نحو الشرق، وعند حدود المقاطعة البروقنصلية (Proconsulaire)، ألحقوا هزيمة بالرومان الذين حاولوا صدّهم. ثمّ استولوا على مدينة هيبّون (Hippo Regius).

فبعدها أقدمت حكومة روما بعزل الحاكم الروماني على إفريقيا **بونيفاس** في مدينة سبتة عام 427م، امتنع هذا الأخير عن الامتثال لقرار العزل، واستنجد بالوندال الذين لبوا طلبه ودخلوا إفريقيا الشمالية عام 429م من إسبانيا تلبية لندائه، عن طريق مضيق جبل طارق بجيش قوامه 80 ألف من الرجال والنساء والشيوخ والأطفال، من بينهم 15 عشر ألف جندي بقيادة **جنسريق (جزريق)**، وأثناء دخولهم للشمال الإفريقي سيطروا على الجزء الغربي من الشمال الإفريقي، وخرّبوا كل ما وجدوه في طرقهم من مزارعات ومباني، وطرّدوا رجال الدين (أتباع الديانة الكاثوليكية).

خلال هذه الفترة، قام القديس **أوغسطين** (أسقف عنابة)، بمساع حميدة لدى الحكومة الرومانية بروما، واقناع الإمبراطور الضعيف **فالنتينيان الثالث Valentinian III (425-455م)** وأمه المتسلطة عليه، بإعادة **بونيفاس** إلى ولايته، الذي سارع إلى مطالبة الوندال بالمغادرة والرحيل عن إفريقيا، لكنهم رفضوا، فأعلن الحرب عليهم، غير أنه خسر المعركة في ضواحي قالمة، وانسحب ولجأ إلى مدينة عنابة وتحصن بها، ورغم تمكنه من الصمود

في وجه قسوة الوندال الذين حاصروه لفترة من الزمن، إلا أنهم دخلوها بعنف في عام 431 م واتخذوها عاصمة لهم، وخلال هذا الحصار تُوفي القديس **أوغسطين**. وفي سنة 435م أبرم معاهدة فدرالية شرّعت سيطرة الوندال على شمال نوميديا، غير أنّ الغزاة استأنفوا توسّعهم، وفي 439م دخلوا قرطاج، ثم أقرّت معاهدة ثانية سنة 442م سيطرتهم على المقاطعتين البروقنصلية والبيزاسينية (Byzacène).

الغزو الوندالي لشمال إفريقيا لم يكن نتيجة لسبب، واحد بل كان نتيجة لأسباب عدة وبفعل تراكمات، سهلت الفرصة على الوندال لتحقيق هذا الغزو الذي سبقته محاولات عديدة من بين هذه الأسباب نذكر التالي:

- تضاعف معاناة الوندال على جميع الجبهات لحد لا يطاق، جراء الحروب التي لا تنتهي مع الرومان والقوط الغربيين، والضغوط التي مارستها عليهم شعوب أخرى طامعة في مناطق نفوذهم، كلها عوامل دفعتهم في عام 420م إلى الاستقرار في جنوب هسبانيا، وهي مستوطنة استمرت عشرين عاما بين هجرتهم من بلاد الغال إلى شبه الجزيرة الأيبيرية بين عامي 409 و429م.
- ضعف الإمبراطورية الرومانية خاصة بعد تقسيمها سنة 392 م من قبل الإمبراطور **ثيودوسيوس** بين ولديه، إلى إمبراطورية رومانية شرقية وغربية، والذي ترتب عنه ظهور عدة أزمات خاصة داخل الإمبراطورية الرومانية الغربية، زيادة على ذلك تمرد القائد الكونت **بونيفاس**، لاسيما بعد وفاة الإمبراطور الروماني الغربي **هونوريوس** سنة 423م، حيث أن **بونيفاس** لم يعترف بـ **يوحنا** الذي أعلن نفسه إمبراطورا في إيطاليا ووقف لجانب ابن أخت **هونوريوس** **غالة بلاسيديا** وابنها **فالنتينيان الثالث** **Valentinian III** الذي كان في عمره أربع سنوات، إلى جانب رفضه للقدوم إلى مدينة **رافن** بعدما استدعته **بلاسيديا** سنة 427م، الأمر الذي اعتبرته تصريحاً صارخاً منه بالاستقلال بمقاطعة إفريقيا، فأرسلت قوات لإخضاعه، غير أن **بونيفاس** هزمها فما كان على مستشاري الإمبراطورية وابنها إلا جمع قوات أخرى لردعه، وعندما تأكد لبونيفاس استحالة التغلب عليها استنجد بالوندال.
- ثروة إفريقيا تعد عاملاً آخر على درجة كبيرة من الأهمية، فـ **جنسريق (جزريق)** لم يغادر الأندلس إلى من أجل الأراضي الغنية خاصة موريطانيا القيصرية ونوميديا وكذلك أراضي البروقنصلية، وعليه فقد كانت دوافع الوندال لعبور السواحل الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط مُمالة بالوضع الاقتصادي في أفريقيا، الذي اتسم بالازدهار ووفرة الإنتاج، كما يصف جيبون: " كانت المنطقة مكتظة بالسكان، وكان هؤلاء السكان يحتفظون بمؤن وفيرة لاحتياجاتهم الخاصة، ويصدرون كميات كبيرة ومنتظمة

سنوياً، وخاصة القمح، مما جعل أفريقيا تُعتبر مستودع الحبوب العام لروما وللبنشيرية جمعاء".

• إفريقيا كلها كانت تريد أن تسترجع استقلالها بعدما تبدى وتجلي ضعف روما، مما صعد من آمال **جنسريقي (جزريق)** في تحقيق نصر سهل. وأثناء اكتساح الوندال لشمال إفريقيا كان الصراع قائماً بين الرومان على عرش الإمبراطورية، وكان النوميديون ينتظرون دخول الوندال على أحر من الجمر، ليخلصوهم من الاستعمار الروماني، كما وجد الدوناتيون فرصة للانتقام من الكاثوليك الذين اضطهدهم.

وبالنسبة لسياسة الوندال في شمال إفريقيا، فإن الوندال دولة عسكرية، يتولى الملك فيها تسمية جميع الأشراف والموظفين بما فيهم الوزير الأول، وكذلك أعضاء مجلس الشوري المنتمون إلى فئة الولاة والقساوسة والأعيان، أما النبلاء الذين حاولوا معارضته فقد تم إعدامهم. وبخصوص أعضاء مجلس الشعب، فقد تم استبعادهم أو عدم توجيه الدعوة لعقد اجتماعات لمجلسهم. وطبقاً للتقاليد الجرمانية التي يلتزم ويعتز الوندال بها، فإن الملك هو القائد الأعلى الذي يتولى قيادة الجيش وتحديد السياسة الخارجية للدولة. كما أنه يقوم بتعيين القساوسة ويمنحهم الإذن بعقد الاجتماعات، أما النبلاء فلا يستمدون ألقابهم بحكم الوراثة، بل بعطف من الملك.

الجدير بالملاحظة، أنه خلال هذه المدة الزمنية من حكم الوندال، ورغم ما عرفته المنطقة من صراع ديني بفعل اضطهاد الأريوس للكاثوليك، إلا أنها عرفت السلم خلال حكم جنسريقي، بفعل التعاون بين المور والوندال قبل الغزو وحتى بعده، إذ شاركوا في الحملات الموالية للغزو، ومما عزز من السلم بين الطرفين الاستقلالية التي كان يتمتع بها الأفارقة إذ رغم خضوع بعض المناطق للوندال إلا أنها احتفظت بأنماط معيشتها.

إن قائد الحملة الوندالية على شمال إفريقيا **جنسريقي** لم يحدث أي تغييرات إدارية أو سياسية في الجزائر، بل سمح للسكان بالحفاظ على الأنظمة المعمول بها في ولايتهم ومجالسهم وعاداتهم وتقاليدهم، في المقابل احتفظ لنفسه بأراضي الدولة الرومانية وخفض الضرائب المفروضة على السكان، وفي ظل ذلك تولى لدى سكان شمال إفريقيا شعور بالارتياح خلال حكم الوندال الذين حرروهم من الرومان المتجبرين، إذ التحقوا بالجيش المحتل المكون من حوالي 80 فرقة عسكرية.

ترتب عن اتخاذ الوندال **الأريوسية** (القائمة على التوحيد المطلق لله دون وسيط وجعل يسوع أول مخلوقات الله) منهجا لهم، اضطهاد العديد من الطوائف الأخرى خاصة المذاهب الكاثوليكية، وتدمير الكنائس ونهب أملاكها والتنكيل بالمسيحيين وملاحقة الكهنة والنبلاء كما تم بعد ذلك إقحام الدوناتية، ليبدأ عصر جديد من التعسف ضد سكان شمال إفريقيا. وفي خضم ذلك واجهه الوندال في شمال إفريقيا إشكالية كبيرة، نتيجة:

⇐ إقدامهم على محاربة الديانة المسيحية خاصة الدوناتية.

⇐ تدمير الحصون الرومانية.

⇐ انشغال جيوشهم بمحاصرة سردينيا.

⇐ تعسف قادتهم ضد سكان شمال إفريقيا.

بعد وفاة الملك **جنسريق** سنة 477م، ضعفت السلطة الوندالية وتغيرت الظروف وبدأت ثورات الأفارقة تتوالى منذ أن تولى ابنه **هونيريك Hunéric** حكم الوندال، وقد كان خصما عنيدا للكاتوليك، ولم يدم حكمه طويلا إذ توفي سنة 484م، خلفه **كونظامون Gunthamund** الذي أعاد الاعتبار لرجال الكنيسة، غير أن نوميديا شهدت في عهده ثورات للبربر ضد حكم الوندال، وقد توفي سنة 496م. ثم جاء **ثرازامون Thrasamun**، اتسم حكمه باضطهاد الكنيسة الكاثوليكية، وبسبب هزيمة جيشه أمام ثورات البربر مات حسرة على ذلك سنة 523م. بعده اعتلى العرش حاكم مسالم يدعى **هيلديريك Hildéric** ابن ثرازامون الذي خالف سياسة أسلافه من الوندال، ونتيجة لإقراره وقف سياسة اضطهاد الأرثوذكس، إلى جانب إعلان دخول دولته تحت سيادة الإمبراطور البيزنطي في مدينة القسطنطينية وكذلك اغتيال زوجة الملك السابق للوندال (ثرازامون)، ثار غضب سكان الوندال، فتم سجنه حتى وافته المنية، وخلفه في ذلك رئيس جنوده المكلف بمحاربة بربر المغرب، وهو **جيلمار Gélimar**، الذي كان آخر حاكم وندالي في شمال إفريقيا.

وفي شهر أغسطس من سنة 534م، نشبت المعركة نواحي تونس العاصمة بين القائد البيزنطي **بليزارايوس وجيلمار**، وانتهت بهزيمة قائد الوندال وفراره، غير أن البيزنطيين تمكنوا من إلقاء القبض عليه في شهر ديسمبر سنة 534م، حيث أُرسل إلى القسطنطينية وهناك توفي لاحقا وفاة طبيعية، وبذلك انتهت دولة الوندال التي استمرت قرابة قرن من الزمن 431-534 م.

وعليه، فقد أعلن الأفارقة الحرب ضد الوندال للقضاء عليهم وإخراجهم من أراضيهم وقد حاول الوندال وضع حد لهذه الحروب، غير أن عدم امتلاكهم لفرق عسكرية كثيرة قلب الظروف لصالح الأفارقة، خاصة وأنه كلما تقدم الوندال لمحاربتهم تراجعوا إلى المناطق الجبلية والصحراوية التي كان يصعب على الوندال اختراقها، ص 283 لكن رغم خطورة الثورات ضد الوجود الوندالي وامتدادها الزمني ومحاولات الائتلاف لدى بعض قادتها، إلا أنه كان ينقصها التنسيق وكانت متفرقة، ولو توحد الملوك الأفارقة لما تركوا المجال للتدخل البيزنطي، ولقضوا على الوجود الوندالي في المنطقة لوحدتهم دون طلب مساعدة منهم، وبذلك فقد ساهمت الثورات في إضعاف الوجود الوندالي في مقابل تسهيل احتلال البيزنطيين لإفريقيا.